الحلقة 20

معركة رد الكرامة وهزيمة توفيل

إعداد: هشام المنشاوي

«عمورية» .. وامعتصماه

معركة عمورية كانت بين الخلافة العباسية و الإمبراطورية البيزنطية في رمضان من عام 223 هـ الموافق لأغسطس آب من عام 838 م . كانت هذه المعركة من أهم المعارك الإسلامية – البيزنطية . وكان الجيش العباسي يقاد شخصيًا من قبل الخليفة المعتصم بالله الذي حكم فيما بين (218 هـ – 227 هـ) الموافق (833 م – 842 م) و كذلك كان الجيش البيزنطي بقيادة توفيل بن ميخائيل سليل الأسرة العمورية وثاني أباطرتها.

في عام 214 هـ الموافق لـ 829 م اعتلى الشاب توفيل بن ميخائيل عرش الإمبراطورية البيزنطية، كانت الحروب بين المسلمين و البيزنطيين ممتدة على مدى قرنين من الزمن على فترات متقطعة. عقدت هدنه دامت لعشرين عاماً بسبب الفتنة التي حصلت في عهد الخلافة العباسية بين الأمين و المأمون وبسبب أن الإمبراطورية البيزنطية كانت أيضًا منهكة بسبب الحروب السابقة.

توفيل كان طموحًا وكان مؤمنًا بعقيدة حظر الإيقونات التي تحرم تصوير شخصيات النصرانية وتمجيدها، توفيل دعّم حكومته وسياسته الدينية بقوة جيشه . بالنسبة لحال الخلافة العباسية آنذاك فقد كانت تعاني من خطر يهددها وهو خطر بابك الخرمي،ففي عهد المأمون كاد الخرمية بقيادة بابك أنْ يودوا بالخلافة الإسلامية العباسية . وحاول المأمون أن يقضي عليها ؛ فأرسل الحملات لكنه تُوفي دون أن يُحقق أي نجاح، وانتقلت مهمة القضاء على هذه الفتنة إلى الخليفة المعتصم بالله ونجح في إخمادها،وكان بابك قد اتصل بتوفيل يطلب منه مهاجمة الخلافة الإسلامية العباسية التي انشغلت بقتالهم، وكان مما قاله له : «"إنّ المعتصم لم يُبْقِ على بابه أحدٌ، فإنْ أردت الخروج إليه فَليس في وجهك أحدٌ يمنعك"».

واستجاب ملك الروم توفيل ميخائيل لاستغاثة بابك، وجهّز جيشًا يزيد قُوامه على مائة ألف جندي ، وسار به إلى الثغور ، فهاجم المدن والقرى يقتل ويأسر ويمثّل ، وكانت مدينة ملطيّة من المدن التيَ خرّبها الملك توفيل، حيث قتل الكثير من أهلها، وأسر نساءها المسلمات، حتى إنّ عددهن بلغ ألف امرأة.

كان توفيل في معاركه هذه استعان بأشتات الخرمية وبقائدهم الذي كان اسمه نصر الذي تنصر و عُمّد واختار لنفسه اسم ثيوفوبس وكان عدد الخرمية في جيش توفيل ما يقارب من أربع عشرة ألف جندي.

فلس من نوع جديد سكب وصنع احتفالاً بانتصارات توفيل بن ميخائيل ضد العرب المسلمين عام 220هـ الموافق 835 م في ثغري زبطرة وملطية ، في وجه الفلس رسمت صورت توفيل وهو يرتدي التوفا (لباس الملوك) وفي الوجه الآخر نُقش توفيل أنت القاهر .

كان السبب الرئيسي هو رد كرامة امرأة عربية تدعى شراة العلوية. حسب المصادر العربية و بسبب هجوم الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس الذي يسمى في المصادر العربية توفيل بن ميخائيل الذي حكم فيما بين (214هـ – 227هـ) الموافق (829 م 842– م) على ثغري ملطية (في تركيا حاليًا) و زبطرة في العام السابق للمعركة وقيامه بتخريبهما و أسر الكثير من النساء فساء هذا المعتصم وقرر الأخذ بالثأر.

وقع في عهد الخليفة المأمون فتنةٌ عظيمةٌ كادت أنْ تودي بالخلافة الإسلامية العباسية، وقادها بابك الخُرَّمي، وكان زعيمَ فرقة ضالة، تُؤمن بالحلول وتناسخ الأرواحَ، وتدَّعو إلى الإباحية الجنسية. وبدأت تلك الفتنة تُطلُّ برأسها في أذربيجان، ثمَّ اتسع نطَاقها لتشمل همدان وأصبهان، وبلاد الأكراد وجرجان، وحاول المأمون أنْ يقضي عليها؛ فأرسل الحملات تَتْرى؛ لقمع تلك الفتنة، لكنه تُوفي دون أن يُحقق نجاحًا، وانتقلت مهمة القضاء على هذه الفتنة إلى الخليفة المعتصم بالله الذي أعانهُ الله فأخمدها، وأسر قائدها وقتله.

وكان من نتائج هذه الفتنة أن اتَّصل قادتها –وعلى رأسهم بابك– بإمبَراطور الروم يستحثُّونه، ويطلبون منه مهاجمة الخلافة الإسلامية العباسية التي انشغلت بقتالهم، وكان مما قالوه له: إنَّ المعتصم لم يُبْقِ على بابه أحدٌ، فإنْ أردت الخروج إليهَ فليس في وجهك أحدٌ يمنعك.

واستجاب ملك الروم "توفيل ميخائيل" لاستغاثة بابك، وجهَّز جيشًا يزيد قُوامه على مائة ألف جندي، وسار به إلى بلاد الإسلام، فهاجم المدن والقرى يقتل ويأسر ويمثِّل، وكانت مدينة ملطيَّة من المدن التي خرَّبها الملك توفيل، حيث قتل الكثير من أهلها، وأسر نساءها المسلمات، حتى إنَّ عددهن بلغ ألف امرأة، وكان يمثِّل بالمسلمين فيقطع آذانهم وأُنوفهم، ويَسْملُ أعينهم.

وكان من بين الأسيرَات امرأة هاشمية تُدعى "شراة العلوية"، استغاثت بالخليفة المعتصم في أسرها، ونقل ذلك إليه؛ فلبى استغاثتها.

كما أنَّ المسلمين جميعًا في سائر الأمصار ضجُّوا واستغاثوا في المساجد والديار، ودخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم، فانشده –قائمًا– قصيدةً طويلة يذكر فيها ما نزل بالمسلمين، ويحضُّه على الانتصار، ويحثُّه على الجهاد، ومنها: يا غارة الله قد عاينت فانتهكي ××× هتك النساء وما فيهن يرتكب هبَّ الرجال على أجرامها قُتلت ××× ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

فخرج المعتصم من فوره نافرًا، عليه دراعةٌ من صوف بيضاء، وقد تعمَّم بعمامة الغزاة، وعسكر غربي دجلة، وأرسل طائفة من الأمراء ومعهم جيش كبير إعانة عاجلة للمسلمين، وساروا إلى تلك الديار؛ فوجدوا الروم قد انسحبوا، حينئذ عادوا للمعتصم رحمه الله.

حصار عمورية

عمورية كانت أهم مدن الإمبراطورية البيزنطية وهي في غرب آسيا الصغرى (الأناضول حديثًا) وعمورية كانت مكان نشأة السلالة العمورية حكمت (205هـ – 253 هـ) الموافق لـ(820 م – 867م) التي كان منها إمبراطور الروم توفيل بن ميخائيل. و تروي المصادر العربية أن المعتصم جمع قادته و سألهم فقال : «"أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهي عين النصرانية وبنكها؛ وهي أشرف عندهم من القسطنطينية"». سار المعتصم إلى عمورية في جحافل كثيرة عديدة ، وبعث أحد قواده ولقبه الأفشين واسمه حيدر بن كاوس إلى موضع يسمى سروج في جنوب تركيا حاليا، وأعد عدته وجمع جنوده ، و اختار الأمراء المعروفين بالحرب ، فانتهى في سيره إلى نهر اللامس وهو قريب من طرسوس، وذلك في رجب من عام 223 هـ الموافق لمايو من عام 838 م. وعند سروج قسم المعتصم جيشه إلى فرقتين : الأولى بقيادة الأفشين، ووجهتها أنقرة. وسار هو بالفرقة الثانية . بعث المعتصم أشناس بقسم من الفرقة التي يقودها إلى أنقرة ، "ولكن من طريق آخر" وسار هو في إثره، على أن يلتقي الجميع عند أنقرة. واصل سيره جنوبًا إلى عمورية و وصلت طلائع الجيش بقيادة أشناس في يوم الخميس 5 رمضان 223 هـ الموافق 1 أغسطس 838 م و وصل المعتصم بعدها بيوم. في هذه الأثناء وصلت إشاعات إلى القسطنطينية بأن توفيل قُتل فعندما رجع إلى القسطنطينية وجد نفسه أمام ثورة فانشغل بها ولم يستطع مساعدة عمورية لكنه أرسل للمعتصم يعتذر له عما حصل للطية ويبين أن ما حصل كان خلاف أوامره ويعده بأن يعيد الأسرى ويبني المدينة من جديد لكن المعتصم رفض هذا العرض، ولم يكتفي بذلك بل أسر الرسول وجعله يرى عملية الحصار بأم عينه .

دام حصار عمورية 11 يومًا فقط وكان في هذا الحصن ساهمت في دخول الحصن وهذا ملخص لما ورد في كتب التاريخ الإسلامي الكامل لابن الأثير و البداية والنهاية لابن كثير وتاريخ الرسل و الملوك للطبري.

اكتشاف ثغرة في بناء الحصن

كان هناك أحد الأسرى المسلمين كان قد تنصر وتزوج منهم ، لكن لما رأى المعتصم و الجيش الإسلامي رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبني بناء ضعيفا بلا أساس،فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلهم عليه ذلك الأسير ، حاول أهل عمورية سد هذا الثغر بالخشب الغليظ القوي لكن قوة المجانيق و كثرة الرمي هدمت السور فيما بعد.

كتب مناطس نائب البلد إلى توفيل يعلمه بشدة الحصار عليه و يطلب منه النجدة ، وبعث ذلك مع رسولين ، لكن تمكن الجيش الإسلامي منهما و أسرهما ، وكان في هذه الرسالة معلومة مهمة ، وهي نية مناطس الخروج فجأة على الجيش العباسي ومقاتلتهم.

آثارها على الإمبراطورية البيزنطية

حاشية الإمبراطور ثيوفيلوس ، يخففون عنه بعد تدمير المدينة التي كانت مهد سلالته. كان هذا الانتصار للخلافة العباسية ذا ثقل على نفس توفيل لا سيما و أن عائلته ومسقط رأسه (حسب بعض المصادر) في عمورية. كان لهذه المعركة تأثير واضح في الأدب البيزنطي.

لم يحصل انهيار تام للإمبراطورية البيزنطية فقد استعادت عافيتها بعد ذلك بسنوات فابن كثير أورد أنه في حوادث عام 249 هـ الموافق 863 م (أي بعد 26 سنة من معركة عمورية) الآتي : «"في يوم الجمعة للنصف من رجب، التقى جمع من المسلمين وخلق من الروم، بالقرب من ملطية، فاقتتلوا قتالا شديدا، قتل من الفريقين خلق كثير ، وقتل أمير المسلمين عمر بن عبيد الله بن الأقطع، وقتل معه ألفا رجل من المسلمين ، وكذلك قتل علي بن يحيى الأرمني، وكان أميرا في طائفة من المسلمين أيضا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد كان هذان الأميران من أكبر أنصار الإسلام"».

القبض على مناطس

تمكن الجيش الإسلامي من القبض على مناطس ، وسيق أسيرا للمعتصم وأخذ المسلمون من عمورية أموالا لا تحد وسبيًا كثيرا، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك، وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لكي لا يتقوى بها البيزنطيون مرة أخرى ، ثم انصرف المعتصم راجعا إلى ناحية طرسوس وكان مكث في عمورية بعد سقوطها 25 يومًاوكان بين تلك الغنائم أبواب حديدية ضخمة للمدينة، نقلها المعتصم في البداية إلى سامراء، حيث تم تثبيتها على مدخل قصره. و من هناك نقلت، إلى الرقة حتى أمر سيف الدولة الحمداني بنقلها إلى باب قنسرين.

إشارات المصادر الغربية

أغلب السبي و الأسارى رجعوا لأهلهم بعد حملة تبادل أسرى في عام 226 هـ الموافق 841 م المثير أن المصادر الإسلامية لم تُشر لهذه الصفقة على الإطلاق.

تزعم المصادر الغربية أن ما يقارب من 42 شخص من كبار أهل عمورية قيدوا لسامراء عاصمة الخلافة العباسية آنذاك (أنشأها المعتصم وجعلها عاصمة للخلافة) و أعدموا بعد سنوات لرفضهم اعتناق الإسلام.

معركة آيزن أو دزمون

ووقعت معركة آيزن أو دزمون في 25 شعبان عام 223 هـ الموافق 22 يوليو 838 م ، بين الأفشين و توفيل بن ميخائيل وهزم فيها الجيش البيزنطي و هرب توفيل إلى القسطنطينية.

وصلت أنباء الإنتصار للمعتصم فواصل السير حتى التقت جميع أقسام الجيش عند أنقرة فدخلوها و كان أهلها قد هربوا منها بعدما سمعوا بهزيمة ملكهم توفيل، و تقوّى المعتصم بما فيها من زاد ومتاع.

المعتصم يأخذ احتياطاته

أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط من خروج أهل عمورية بغتة و زاد المعتصم في المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب.

كان المعتصم قد غنم عدد كبير من الأغنام قبل حصار عمورية وكان هناك خندق عميق محيط بعمورية فقرر المعتصم أن يفرق الأغنام بين الجنود وأن يأكل كل رجل رأسا ويجيء بملء جلده ترابا فيطرحه في الخندق، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من جلود الأغنام ، ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقا ممهدا، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه.

سقوط السور

وبينما الناس في الجسر المردوم ، سقط السور الضعيف ، لكن كان ضيقًا و لم يكن ما هدم يسع الخيل والرجال إذا دخلوا. وقوي الحصار وقد وكل مناطس بكل برج من أبراج السور الأربعة والأربعين أميرا يحفظه ، فضعف ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار ، فذهب إلى مناطس فسأله النجدة فامتنع من مساعدته بحجة انشغال الآخرين بمراقبة الأسوار الأخرى،فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به.

اقتحام الحصن

ودخل المعتصم وجنده مدينة عمورية في (17 رمضان 223 هـ – 12 أغسطس 838 م)، وتكاثر المسلمون في المدينة وهم يكبرون ويهللون ، وتفرّقت الروم عن أماكنها ، فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان ، ولم يبقَ في المدينة موضعٌ محصّنٌ سوى المكان الذي يجلس فيه نائبها مناطس ، وهو حصن منيع، فركب المعتصم فرسه ، وجاء حتى وقف بحذاء الحصن، فناداه المنادي : ويحك يا مناطس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك. فقالوا: ليس بمناطس ههنا مرتين. فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن، وطلعت الرسل إليه، وقالوا له: ويحك! انزل على حكم أمير المسلمين. فتمنّع، ثم نزل متقلدًا سيفه، فوضع السيف في عنقه، ثمّ جيء به حتى أُوقف بين يدي المعتصم ، فضربه بالسوط على رأسه، ثمّ أمر به يمشي إلى مضرب الخليفة مهانًا.

بعد المعركة

توفيل مرض مرضا شديدا بعد هذه الهزيمة وعلى الرغم من أنه تحسن بعد ذلك إلا أن صحته تدهورت حتى توفي بعد ذلك بثلاث سنوات،المؤرخون البيزنطيون عزوا وفاته قبل أن يبلغ الثلاثين إلى حزنه الشديد على سقوط عمورية مسقط رأسه.

سقوط عمورية ألهم الكثير من الأدباء البيزنطيين فنُسجت الكثير من القصص و الأغاني كأغنية عمورية (بالإغريقية: Ἄσμα τοῦ Ἀρμούρη) . نظم أبو تمام قصيدته الشهيرة وهي ظاهرة في (الإطار الأيمن) . بُنيت أنقرة من جديد وكذلك عمورية بعد هذه المعركة لكنها لم تسترد بريقها السابق.

تُشير بعض المصادر أن المعتصم كان قد عزم على التوجه إلى القسطنطينية لكن ثورة ابن أخيه العباس بن المأمون عليه جعلته يتراجع عن هذه الخطوة.

أرسل توفيل بن ميخائيل رسوله الثاني إلى المعتصم حاملا الهدايا وخطاب اعتذار، وعرض من توفيل للمعتصم بتقديم 20،000 باوند بيزنطي حوالي 6،500 كيلوغرام من الذهب وإطلاق سراح جميع العرب المحتجزين لدى البيزنطيين مقابل استرداد عمورية . رفض المعتصم الفدية ، وقال إن الحملة وحدها قد كلفته أكثر من 100،000 باوند بيزنطي أو 32500 كليلوغرام ذهب وهو ما يعادل ثمانية ملايين دينار عباسي.